الفصل التاسع

فريدريك نيتشه
(١٨٤٤-١٩٠٠م)

نيتشه

• ١- نشأته:

تأثر فريدريك نيتشه بنظرية دارون بشدة، كما تأثر أيضًا بسياسة "بسمارك[١]". ولا يتنافى مع ذلك سخريته الشديدة من أتباع نظرية التطور في إنجلترا، ومن أتباع التيار القومي في ألمانيا. فقد اعتاد على مهاجمة من أثروا فيه وبشدة. إنها طريقته التي يستخدمها مع من ألهموه معظم ما كتب من أفكار وفلسفة.

بسمارك

(١) - إدوارد ليوبولد فون بسمارك (١٨١٥-١٨٩٨م) رجل دولة وسياسي بروسي (ألماني) شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامي ١٨٦٢ و١٨٩٠م، وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية أو ما يسمى بـ «الرايخ الألماني الثاني»، وأصبح أول مستشار لها بعد قيامها عام ١٨٧١م، حتى عزله الملك فيلهلم الثاني عام ١٨٩٠م. وقد أثرت أفكاره على السياسة الداخلية والخارجية لألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر، لذا عُرف بسمارك بلقب "المستشار الحديدي". (المترجم)

فإن كانت الحياة هي صراع على البقاء، فالبقاء للأصلح. وهنا تكون القوة هي أم الفضائل ويكون الضعف هو أساس النقائص. فالخير يحيا وينتصر والشر يستسلم ويفشل. وقد أظهر أتباع دارون في إنجلترا وأصحاب الفلسفة الإيجابية في فرنسا والاشتراكيون في ألمانيا كثيرًا من الشجاعة ورفضوا اللاهوت المسيحي. لكن لم يجرؤ أي منهم على رفض الأخلاق المسيحية، وذلك على الرغم مما فيها من ضعف ولين وتسامح ومحبة الغير إلى غير ذلك من صفات لينة. كما أظهروا جرأة في التخلي عن المذهب الكاثوليكي والأنجليكاني. لكن لم يجرؤ أي منهم على ترك الديانة المسيحية، وهذا هو ما قاله فردريك نيتشه:

"لم يترك المفكرون الأحرار في فرنسا (من فولتير إلى كومت) المثل العليا للدين المسيحي بل أضافوا إليها. فقد نادى كومت بمحبة الآخرين والعمل من أجلهم. ونادى شوبنهور في ألمانيا وجون ستيورت مل في إنجلترا بنظرية الشفقة ومساعدة الآخرين، واعتبروها أساسًا للعمل. كما أقام كل الاشتراكيين أفكارهم على أساس من مبادئ الشفقة والرحمة ومساعدة الآخرين."

وقد أتم دارون دون قصد ما بدأه الموسوعيون من القضاء على اللاهوت الذي تقوم عليه الأخلاق الحديثة. إلا أنهم لم يمسوا مبادئ الأخلاق نفسها ولم يخترقوها[1]. وهكذا فإن ما نحتاج إليه في معركة الحياة هو القوة وليس الطيبة، الكبرياء وليس الإذعان، والحزم والذكاء وليس حب الغير ومساعدة الآخرين. كما أن مبدأ الديموقراطية والمساواة يتعارض مع نظرية الانتخاب الطبيعي. والحكم النهائي في أي خلاف يخضع للقوة وليس للعدالة. وهذا هو ما كان فردريك نيتشه يعتقده.

أما بسمارك فقد كان ريحًا عاتية، بالنسبة لأوروبا التي أفسدتها الديموقراطية والمثل العليا السائدة. ففي خلال أشهر قليلة تمكن من السيطرة على النمسا بعد أن تدهورت أحوالها، ثم أخضع فرنسا التي كانت لا تزال تعيش فرحة انتصارات نابليون الأسطورية. وقد أُجبرت الدول الألمانية الصغيرة على الاتحاد وتكوين إمبراطورية قوية. وهكذا كان بسمارك رمزًا للأخلاق التي نادى بها نيتشه، إنها أخلاق القوة. وقد احتاجت

(١) - هذا أمر متكرر في آراء وفلسفات كثير ممن درسناهم من فلاسفة هذا الكتاب. في البداية يكون التمرد على الدين، ثم التمسك بالأخلاق التي يحض عليها ذلك الدين، جميعها أو بعضها، وأحيانًا تكون هناك إضافة ما هو غريب إلى تلك الأخلاق. (المترجم)

ألمانيا الجديدة إلى صوت يعبر عنها ويتحدث باسمها. فوجدت في فلسفة دارون ما يبرر اتجاهها العسكري والروح الحربية المتزايدة. وهنا أصبح نيتشه هو الصوت المعبر عن ألمانيا وروحها العسكرية وإيمانها الراسخ بالقوة.

• ٢- فترة الشباب:

كان والد نيتشه يعمل قسيسًا، وكان معظم أجداده لأمه وأبيه من رجال الدين. وقد ظل هو نفسه مبشرًا ومتحدثًا في الدين إلى آخر عمره. لكنه هاجم الديانة المسيحية، وكانت فلسفته تحاول موازنة الدين المسيحي وإصلاحه.

ولد فردريك نيتشه في "روكن" في بروسيا يوم ١٥ أكتوبر عام ١٨٤٤م وهو نفس يوم مولد وليم الرابع ملك بروسيا. وكان والده مربيًا لكثير من أبناء الأسرة المالكة فسعد بشدة من تلك الصدفة الملكية. فأطلق اسم فردريك على ابنه تيمنًا باسم الملك. وعن يوم مولده يقول نيتشه: "عمت مظاهر الفرح والسرور في جميع الأنحاء في يوم مولدي."

مات أبوه وهو لا يزال صغيرًا، فأشرف على تربية نيتشه مجموعة من النساء الفضليات من أفراد أسرته، إلا أنهن أسرفن في تدليله، لدرجة أنه أصبح شديد الحساسية ومرهف الشعور. ولذلك فقد كان يستنكر بشدة ما يقوم به أطفال الجيران من أعمال سرقة فراخ الطيور الصغيرة، أو سرقة الفواكه من البساتين أو استخدام الألعاب النارية تشبهًا بالجنود، أو حتى إن تحدثوا بحديث كاذب. وهذا جعل أقرانه في المدرسة يطلقون عليه اسم "القسيس الصغير".

وكان نيتشه يحب العزلة وقراءة الإنجيل لنفسه، وكان يقرأه للآخرين بصوت مسموع وبطريقة مؤثرة تبكيهم وتهز وجدانهم.

وعندما وصل نيتشه إلى سن الثامنة عشرة كفر بإله آبائه وبحث عن إله جديد. واعتقد أنه الإنسان الأعلى (سوبرمان). لكنه مثل من راهن بكل ما معه من مال على حصان بطيء. فخسر هذا الرهان. وكانت نفسه تكره الخمر والتدخين ولا يقرب النساء. وكان يرى أن المدخنين ومدمني شرب البيرة غير قادرين على الإدراك ووضوح الرؤية.

وفي عام ١٨٦٥م قرأ كتاب شوبنهور "العالم كإرادة وفكرة". فقال إنه مرآة رأى فيها

العالم والحياة والطبيعة. يقول عن تجربته مع ذلك الكتاب: "لقد شعرت أن شوبنهور يخاطبني أنا شخصيًا. وتخيلت شوبنهور كما لو كان أمامي. وكان كل سطر في الكتاب يناديني لأومن به."

وقد تأثر بفلسفة شوبنهور، ليس فقط في أيام بدايته وتحمسه لشوبنهور باعتباره مربيًا ومثقفًا (كما أشار إليه في عنوان إحدى مقالاته). لكنه تأثر به حتى في أيام رفضه للتشاؤم، وظل متأثرًا به طوال حياته.

وفي سن الثالثة والعشرين التحق نيتشه بالخدمة العسكرية. وكان يتمنى أن يحصل على إعفاء نهائي من الخدمة لضعف بصره ولأنه وحيد أمه. إلا أن الجيش أصر على بقائه، ولم ينه خدمته سوى حادث لسقوطه من على جواده وإصابته بإصابات بالغة في الصدر، مما جعل قائد فرقته العسكرية يرى أنه لا يصلح للخدمة العسكرية، فقرر الاستغناء عنه وتم تسريحه. وقد لازمته تلك الإصابة طوال حياته ولم يشف منها. وقد أثرت تجربته العسكرية القصيرة جدًا على حياته وأفكاره.

ومن الحياة العسكرية انطلق نيتشه إلى الحياة العلمية وحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة. ولما بلغ نيتشه ٢٥ عامًا عين أستاذًا في فقه اللغة القديمة في جامعة بال. ومن ذلك المكان البعيد عن أهوال الحروب، أعلن نيتشه تأييده لبسمارك واعتزازه بأعماله، وهي أعمال تتسم بالعنف والشدة والقتل وإسالة الدماء. كما أعلن أسفه عما لحق به من قبل من إصابة أبعدته عن المشاركة في تلك البطولات. كما كان نيتشه يتمنى لو كان يعمل بمهنة عملية تتصف بالنشاط والحركة بدلاً من عمله الذي أقعده عن المشاركة في القتال. كان يتمنى أن يكون طبيبًا.

وفي نفس الوقت أحب نيتشه الموسيقى بشدة، فتعلم العزف على البيانو، وألف بعض المقطوعات. وكان يقول إن الحياة بدون موسيقى خطيئة. وكان الموسيقى "ريتشارد فاجنر" يسكن في مدينة قريبة منه، وكان يقيم مع زوجة رجل آخر!![1] فدعا نيتشه لقضاء ليلة رأس السنة معه في عام ١٨٦٩م، وقد أظهر نيتشه تحمسًا للفنان الواعد، ورأى فيه "فاجنر" مروجًا جيدًا لأعماله في الأوساط العلمية والجامعية.

---

(١) - علامات التعجب من وضعي أنا، حيث لا يستنكر مؤلف الكتاب ذلك الفحش، ولا يستنكره الضيف (نيتشه) الذاهب لزيارة صديقه المقيم مع امرأة متزوجة بغيره. (المترجم)

تأثر نيتشه بسحر موسيقى المؤلف الموسيقي الكبير، ومجد أعماله بشدة في كتاب من كتبه كان قد بدأ في تأليفه. ثم سافر إلى جبال الألب ليجد الهدوء اللازم لإكمال الكتاب هناك. وعندما وصل إلى هناك، جاءته أخبار اندلاع الحرب بين ألمانيا وفرنسا. فتردد نيتشه قليلاً، هل يلبي نداء الواجب ويتطوع في الجيش أم يبقى منعزلاً ويركز في الكتابة؟ ولم يستطع سوى أن يلبي نداء الوطن، رغم أحلام الكتابة الأدبية والكتابة في الشعر والفكر والفلسفة. فقرر العودة إلى بلاده.

وفي طريق العودة، شاهد نيتشه سرايا من الجنود يسيرون في شوارع المدينة في موكب جليل، وسمع صوت قعقعة الأسلحة. فخطرت على باله فكرة أصبحت أساسًا لفلسفته فيما بعد. يقول: "لقد شعرت لأول مرة أن أقوى إرادة للحياة لا تجد مكانًا لها في الصراع البائس من أجل البقاء. فالفرصة متاحة أمام إرادة القوة، إرادة السيادة."

لم يحقق نيتشه ما أراد، فقد أقعده ضعف بصره عن المشاركة في الحرب كجندي، فاكتفى بالقيام بأعمال التمريض في الجيش. وعلى الرغم من هول ما رآه في مهنة التمريض، إلا أنه لم يخض أهوال الحرب والقتال، ولم يجرب الاشتراك في الحرب.

وقد كان نيتشه شديد الحساسية ورقيق جدًا حتى عندما مارس مهنة التمريض. وقد تأثر بشدة من كثرة ما رأى من مناظر الدماء والإصابات، فسقط مريضًا وعاد إلى مدينته محطمًا وحزينًا.

• ٣- نيتشه وفاجنر:

وفي بداية عام ١٨٧٢م نشر نيتشه أول كتبه، وكان بعنوان "نشأة المأساة من روح الموسيقى". وقد جاء كتابه هذا في أسلوب شعري وجداني غنائي رائع غير متوقع منه على الإطلاق. وقد تحدث في الكتاب عن إلهين من آلهة اليونان القديمة، وهما "ديونسوس" و"باكوس". ثم تحدث بعد ذلك عن "أبولو" إله السلام والراحة والسكون عند قدامى اليونانيين. وقد أبدع في ذلك كثيرًا، حيث مزج ما في "ديونسوس" من قوة ورجولة مع ما في "أبولو" من جمال أنثوي هادئ !!!

وكان أهم ما يميز الدراما اليونانية هو روح التشاؤم. فلم يكن اليونانيون شعبًا متفائلاً على الإطلاق. والتشاؤم علامة ضعف ويأس، والتفاؤل علامة التفكير السطحي وقصر النظر. أما التفاؤل الحريص أو التفاؤل الحذر عند وقوع المأساة، فهو صفة

الرجل القوي الساعي إلى توسيع خبرته وتجاربه، وإن كان ذلك على حساب ما يلاقي من ويلات.

وقد رأى نيتشه أن على الشعب الألماني أن يدرك أن غرائزه أصدق من تلك الثقافات القديمة المنحلة. وأن عليه أن يصلح الموسيقى كما أصلح الدين. وعليه أن يتولى الفن بقوة مؤثرة مثلما فعل "لوثر" في الدين. فمن يدري، فلعل الروح العسكرية الألمانية أن تنتج لنا عصرًا آخر من عصور البطولة، وعسى أن يبزغ بسببها فجر جديد.

وفي عام ١٨٧٢م عاد نيتشه إلى مدينة "بال" على الرغم من اعتلال جسده، إلا أن روحه كانت تموج بطموح شديد. فقد مل من إلقاء المحاضرات، كما خيبت الحرب آماله، فانتقل إلى مهاجمة الجامعات الألمانية ذات الطابع القومي، يقول:

"علمتنا التجارب أنه لا يوجد ما يمكن أن يعوق طريق تطور الفلاسفة العظام أكثر من تأييد أسوأ الفلاسفة في الجامعات. كما أننا لا نجد دولة تدعم الفلاسفة لأنها تخشاهم."

وقد دعا نيتشه إلى إعادة تكوين الأخلاق والدين على أساس من نظرية التطور. ورأى أن العمل لا يجب أن يوجه إلى تحسين أحوال أغلب أفراد الشعب بل إلى خلق العباقرة، وإظهار الرجال العظام ورفعهم في أعلى الأماكن.

ريتشارد فاجنر - مولف موسيقي ألماني (١٨١٣-١٨٨٣م)

وفي إحدى مقالاته، أظهر نيتشه تحمسًا شديدًا للموسيقار الموهوب "فاجنر". وقال عنه إنه لا يعرف معنى الخوف، وسماه "الباعث الحقيقي للفن". وكان يعتبره أول من دمج الفنون مع بعضها بأسلوب جميل. لكنه سرعان ما خاب رجاؤه في فاجنر. وهكذا أصبح نيتشه يشارك أفلاطون مخاوفه الفنية ويرى أن الفن لا يعلم الرجال الخشونة.

• ٤- أغنية زرادشت:

وهكذا، لاذ نيتشه بالعلم وأعرض عن الفن بعد أن خيب أمله. كما لجأ إلى الفلسفة التي لا يقوى على اقتحامها أي من الطغاة. وحاول أن يهدئ مشاعره المضطربة، فبدأ في تحليلها وفحصها، مثلما حدث مع سبينوزا. وكان يقول: "إننا بحاجة إلى كيمياء من العواطف." وهكذا تحول إلى عالم نفساني، وألف كتابًا حلل فيه أرق المشاعر وأهم المعتقدات، وحللها بقسوة لا تقل عن قسوة مشرط الجراح. وقد أهدى كتابه هذا إلى فولتير وأهدى نسخة منه إلى فاجنر وكان ذلك هو آخر اتصال بينهما.

وفي عام ١٨٧٩م، أصيب نيتشه بمرض عضال، وأوشك على الموت. فأخذ يوصي أخته قائلاً: "لا يقف حول جثماني إلا الأصدقاء، عديني بذلك. كما لا يجب أن يدخل إلى الجنازة الفضوليون من الناس. ولا تطلبي من قسيس أن يأتي ليردد أكاذيب وأباطيل عند قبري في وقت لا يمكنني فيه أن أدافع عن نفسي. أريد أن أدفن في قبري وأنا شريف." لكنه شفي ولم تُقم الجنازة المزعومة. كما نهض نيتشه من فراشه وهو أكثر حبًا للصحة والشمس والحياة والضحك والرقص وموسيقى الجنوب. وأصبحت إرادته بعد المرض أقوى، فقد قاوم الموت وشعر بحلاوة الحياة. وبدأ يؤمن بالقدر والجبرية مثل سبينوزا.

وبعد ذلك أصدر نيتشه كتابين هما "فجر اليوم" (١٨٨١م) و "الحكمة المرحة" (١٨٨٢م). واتسم أسلوبه في هذين الكتابين بالرقة والأسلوب السهل أكثر مما تلاها من باقي كتبه.

وفجأة وقع نيتشه في الحب، وكان لديه من الوقت الكافي لذلك. فكان يعيش على معاش من الجامعة. لكن من أحبها لم تبادله الحب، فقد كانت عيناه عميقتين وغير مريحتين. وهنا هام نيتشه على وجهه، ينتقل من مكان إلى مكان، وقد تملكه اليأس

بشدة. فانتقل إلى إيطاليا، ثم إلى جبال الألب، وهناك وعلى قمة الألب، أوحى له المكان بأعظم كتبه.

فكتب عن ذلك شعرًا يقول:

كنت أنتظر هناك .. أنتظر لا شيء

أنعم بما هو أرقى من الخير والشر

بالنور مرة وبالظل مرات

فلا يوجد هنا إلا النهار والبحيرة

.. والزمن الأبدي

وفجأة أصبح الواحد .. اثنين

لقد مر من أمامي .. زرادشت

لقد ارتفعت معنويات نيتشه، فقد وجد في زرادشت[1] معلمًا جديدًا، كما وجد لنفسه إلهًا جديدًا وهو الإنسان الأعلى (السوبر مان) ودينا جديدًا وهو التكرار الأبدي[2]. وبدأ يغني. وهنا ظهرت الفلسفة في شعره الفياض بسبب ما وصلت إليه روحه المعنوية من حالة طيبة. ثم ألف كتابه "هكذا تكلم زرادشت" في عام ١٨٨٣م.

وكان كتابه بديعًا، وكان نيتشه يعرف ذلك فقال عنه إنه كتاب يعجز الشعراء عن تأليف مثله. إنه بلا ريب أعظم كتب القرن التاسع عشر. ومع ذلك وجد نيتشه صعوبة في نشر الكتاب. فقد كانت مطابع الناشر مشغولة بطبع نصف مليون نسخة من كتاب تسابيح دينية، تبعته العديد من النشرات المعادية للسامية. وبعد ذلك رفض الناشر طباعة الجزء الأخير من الكتاب، وذلك لعدم صلاحيته تجاريًا. لذلك فقد اضطر نيتشه إلى طباعة كتابه على نفقته الخاصة، وباع من الكتاب ٤٠ نسخة فقط. وأهدى منه ٧ نسخ. واعترف بما جاء في الكتاب شخص واحد فقط، ولم يمدحه أحد أو يثني عليه.

---

(١) - زرادشت: هو مؤسس الديانة الزرادشتيه في وسط آسيا، وقد ظلت طقوسها وتعاليمها منتشرة في بعض بلاد آسيا حتى ظهور الإسلام. (المترجم)

(٢) - تعالى الله عما يصفون، هكذا يرى الفلاسفة كل شيء بسيط وممكن. فالشرك أو الإلحاد ممكن، وهنا يضيف نيتشه إمكانية جديدة يمنتهى البساطة وهي أن يوجد لنفسه دينًا جديدًا وإلهًا جديدًا على هواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. (المترجم)

• ٥- أخلاق البطل:

اعتبر نيتشه أن كتابه عن زرادشت دستورًا لحياته. ولم تكن كتبه التالية سوى تعليق عليه. وإن كانت أوروبا لم تقدر شعره حق قدره، فقد قدرت نثره.

لكن كتاب نيتشه عن زرادشت يبدو غريبًا وشاذًا في نظر أصدقائه. فهاجمه محبوه وحزن عليه زملاءه. وتركته أخته وتزوجت من رجل يكرهه. ثم سافرت إلى باراجواي.

بدأ نيتشه يطوف أوروبا، فسافر إلى جنيف والبندقية وجنوا ونيس وتورين. وبدأ يكتب من جديد، إلا أن نظره بدأ يضعف بشدة، فأقعده ذلك عن تأليف الكتب. واكتفى بكتابة الحكم الأخلاقية.

ثم جمع تلك الحكم والمبادئ الأخلاقية في كتابين أولهما بعنوان "ما فوق الخير والشر" (١٨٨٦م) والثاني بعنوان "تاريخ تسلسل الأخلاق" (١٨٨٧م). وكان يهدف من هذين الكتابين إلى القضاء على الأخلاق القديمة وتمهيد الطريق أمام

أخلاق الإنسان الأعلى (السوبرمان).

ومما جاء في تلك الكتب أن الأخلاق هي إرادة القوة. والحب رغبة في التملك، وممارسة الحب معركة، والزواج سيادة. وأن العقل والأخلاق عاجزان أمام إرادة القوة. فهما سلاحان في يدها، وما النظم الفلسفية إلا خداع وسراب[1].

وقد رأى نيتشه أن الحياة مليئة بالشرور والآلام، وأن الإنسان القديم كان يشعر بنشوة عظيمة وفرحة عند ارتكاب أشد أعمال البطش والقسوة. وكان يرى أن الإنسان أشد قسوة من الحيوانات. وهو يشعر بسعادة كبرى حين يشاهد مناظر التعذيب والصلب وغيرها من مناظر مؤذية للشعور. وأن الإنسان اخترع فكرة العذاب في جهنم حتى يسعد بتصور أعدائه وهم يعذبون[2]!!

والأوربي بصفة عامة في أيامنا هذه يمجد ويعظم ويعلي من شأن صفاته الضعيفة، كالرقة والاعتدال والرحمة واللطف والصبر والنفع للمجتمع. وهو يرى أنها الصفات المميزة للإنسان.

---

(١) - صدق نيتشه، كثير مما جاء على ألسنة الفلاسفة ما هو إلا محض خداع وتأليف لا معنى له. (المترجم)

(٢) - الإيمان بالآخرة والحساب يوم الدين والثواب والعقاب من عقائد كل الديانات السماوية، ثم يأتي نيتشه ويقول ببساطة إن عذاب جهنم فكرة اخترعها الإنسان كيدًا للأعداء! (المترجم)

• ٦- الإنسان الأقوى (سوبرمان):

بما أن القوة وحدها في رأي نيتشه هي أساس الأخلاق وليس اللين أو الرحمة. لذلك ينبغي على كل شعوب العالم بذل جهودها لرفع مستوى عامة الناس. وينبغي أن يكون هدف البشرية هو الإنسان الأعلى، وليس كل البشر. ويجب أن يكون تحسين حال البشر هو آخر ما ينظر إليه العقلاء والمفكرون. والمجتمع الذي لا يعمل على إيجاد الإنسان الأسمى أولى به أن يفنى وينتهي. فالمجتمع وسيلة لرفع مستوى قوة الفرد وشخصيته، والحياة في جماعة ليست غاية في حد ذاتها.

ومن الواضح أن نيتشه كان يأمل في إيجاد نوع خاص من الإنسان. لكنه قرر بعد ذلك أن الإنسان الأعلى يخرج من بين الناس لما يتحلى به من شجاعة وقوة وليس عن طريق الانتخاب الطبيعي. لذلك فإن أردنا أن يوجد ذلك الإنسان الأعلى، لابد لنا من الإشراف على التربية وألا نترك الأمر للانتخاب الطبيعي. وذلك لأن الطبيعة تعاند الأفذاذ وهي أقسى ما يمكن على أفضل الأفراد. والطبيعة تميل إلى الهبوط بمستوى العباقرة والأفذاذ إلى مستوى عامة الشعب، فهي تنتصر دائمًا للكثرة على الصفوة من الممتازين والأفذاذ. لذلك فالمهمة مهمتنا نحن، وعلينا أن نهتم بالتربية وتحسين النسل والتعليم، فالتعليم يرفع من قدر الرجال.

لكن من السخف أن نترك عظام الرجال يتزوجون عن طريق الحب. فيتزوج البطل من خادمة والعبقري من خياطة أو عارضة أزياء. لقد كان شوبنهور مخطئًا عندما ظن أن الحب عامل من عوامل تحسين النسل. لكن على العكس، الحب يعمي بصيرة الإنسان ويفقده الحكمة. لذلك فلا يجب السماح بزواج قائم على الحب، وأن يتزوج أفضل الرجال من أفضل النساء. وعليهم أن يتركوا الزواج عن حب لعامة الناس. فالزواج ليس مجرد طريقة لزيادة النسل، بل يجب أن يكون أداة للتطور والرقي أيضًا.

كذلك لابد من تدريب الأطفال على الأخلاق والنبل وتحمل المسئوليات الكبرى. وألا يتعودوا على التنعم بالكثير من وسائل الراحة. وعليهم أيضًا تعويد أجسامهم على تحمل الألم في صمت، والتدرب على إطاعة الأوامر ومهام القيادة. وعلى المدرسة أن تبتعد عن التساهل والحرية الزائدة التي تضعف الجسد وتفسد الأخلاق. كما يجب

أن يخلو تعليم الإنسان الكامل في هذه المدرسة من التطرف الأخلاقي مثل التقشف والزهد واحتقار الجسد.

بمثل هذه الطريقة في التربية يسمو الإنسان فوق الخير والشر معًا ولا يتردد في استعمال القسوة والعنف لتحقيق غاياته. ويكون شجاعًا وصالحًا وخيرًا. فالخير هو الشجاعة .. هو ما يزيد شعورك بالقوة .. وهو الإرادة .. إرادة القوة.

وقد تكون أهم صفة في الإنسان الأعلى (سوبرمان) هي حب المخاطرة والكفاح طالما أن له هدفًا من وراء ذلك.

أما من ينساق وراء عواطفه وشهواته، فهو الضعيف الذي يفتقد القوة والقدرة على الكبت وكبح الشهوات. إنه من لا يستطيع أن يقول "لا" إن استدعى الأمر ذلك. فهو إنسان متناقض ومنحط. لذلك فعلى الإنسان أن يسعى لأن يكون قويًا ويسلك في ذلك كل الطرق الممكنة إلا طريق واحد وهو طريق الخيانة. وهذه هي الطريقة المثلى للوصول إلى منزلة الإنسان الأعلى.

ونحن لن نحب الحياة ونطورها إلا إذا جعلنا وصولنا إلى منزلة هذا الإنسان الأعلى هدفًا لنا جميعًا. لنكن عظماء، أو خدمًا لهم أو أدوات تمكنهم من تحقيق ما يريدون. وذلك مثلما قدم ملايين البشر في أوروبا أنفسهم لنابليون حتى يحقق أهدافه. لقد ضحوا بأرواحهم عن طيب خاطر وكانوا يرددون اسمه في أغان وهم يسقطون في ميدان المعركة. لذلك فعلينا أن نتعاون جميعًا على اختلاف أوطاننا على تحقيق هذا الهدف، وهو وجود الإنسان الأعلى.

• ٧- الانحطاط :

هكذا .. يكون الطريق إلى الإنسان الأعلى هو الأرستقراطية، أما الديموقراطية فهي سخف يقول إن الحكم للأكثرية ويجب القضاء عليه قبل فوات الأوان. وأول خطوة من أجل ذلك هي القضاء على المسيحية، حيث كانت أساسًا لبدء الديموقراطية. فقد كان المسيحي القديم ثائرًا على كل أنواع التمييز. ولو كان يعيش في عالم اليوم لأصبح منفيًا. ألم ينادي ذلك المسيحي القديم بالمساواة في الحقوق، كما أنه يقول "خادم القوم سيدهم"، وهذا ينافي الحكمة السياسية والعقل السليم. والواقع إن من يقرأ الإنجيل يعتقد أنه مكتوب باللغة الروسية، فما جاء فيه لا يناسب إلا الطبقات الدنيا

من الناس. وعندما يتربع الإنسان على عرش حكم، يحدث التناقض، ويصبح أحقر الناس هم علية القوم. كما أدى غزو المسيحية لأوروبا إلى القضاء على الأرستقراطية القديمة.

ولا صحة لما يقوله بعض الناس من أن الدول تنشأ باتفاق الناس فيما بينهم، وذلك لأن الدول تقوم على أكتاف الجبابرة والغزاة والطغاة. فما قيمة الاتفاق مع من خُلق ليكون قائدًا قويًا وعنيفًا؟

لكن هذه الفئة الحاكمة القوية أفسدها التخنث الضعيف النابع من:

أولاً: الفضائل الكاثوليكية الضعيفة المتخاذلة.

ثانيًا: المبادئ الشعبية الناتجة عن الإصلاح الديني.

ثالثًا: مصاهرة الطبقات الدنيا.

لقد فسد ذكاء الألمان بسبب المذهب البروتستانتي وشرب البيرة. كما ساهمت أوبرا فاجنر في إفساد ذكاء الألمان أيضًا. وهكذا أصبحت بروسيا الألمانية ألد أعداء الثقافة، وهذا يقف عقبة أمام فهم الشعب الألماني لفلسفتي[1]. وعلى الرغم من ذلك، فإن الشعب الألماني يمتاز بالوقار والعمق، وهذا يجعل هناك أمل في أن تنهض ألمانيا يومًا وتنقذ العالم وتخلصه. وذلك لأن في الشعب الألماني من صفات الرجولة ما لا يوجد في الفرنسيين أو الإنجليز. هذا بالإضافة إلى ما يتصف به الألمان من صبر ومثابرة. وقد أدى ذلك إلى تعمقهم في العلوم ووجود نظامهم العسكري. ومن الممتع أن تكون أوروبا كلها متوترة من قوة الجيش الألماني. فإن أمكن التعاون بين القوة الألمانية العظيمة ومصادر الثروات في روسيا، لبزغ فجر أوروبي جديد وبدأت حقبة سياسية قوية. نحن بحاجة إلى دمج الجنسين الألماني والسلافي، كما أننا بحاجة إلى الذكاء المالي لليهود[2]. فهذا قد يمكننا من تسيد العالم، ولابد لنا من اتحاد غير مشروط مع روسيا.

---

(١) - كل الكلام الوارد في هذا الجزء من الفصل يرد على لسان نيتشه نفسه. (المترجم)

(٢) - لم يشتهر اليهود إلا بالقدرة على التحكم في المال والاقتصاد، وقد أشار هتلر إلى ذلك في كتابه «كفاحي»الذي ترجمته إلى اللغة العربية وصدر عن دار ابن سينا في القاهرة. كما أشار له أيضًا هنري فورد في كتابه «اليهودي العالمي» وقد ترجمته أيضًا إلى اللغة العربية وصدر عن دار ابن سينا في القاهرة. وقد ركز الخبراء الذين كلفهم فورد بإعداد ذلك الكتاب على خطة اليهود للسيطرة على الاقتصاد العالمي. (المترجم)

فالمشكلات في ألمانيا ناتجة عن بلادة التفكير، كما أنها تنقصها الثقافة الواسعة التي يتحلى بها الفرنسيون. وأي ثقافة أوروبية أخرى غير الثقافة الفرنسية تعتبر هراء. أما روسيا فهي الوحش الأوروبي، كما أن شعبها قوي الإرادة وشديد الإيمان بالقضاء والقدر. وحكومة روسيا قوية لا تعترف بالغباء الألماني. لذلك فليس من الغريب أن تتمكن ألمانيا من بسط نفوذها على أوروبا كلها وتتسيد القارة.

ولا يستطيع أي مفكر مهتم بمستقبل أوروبا أن يسقط من حساباته الروس واليهود فهم عناصر فعالة في صراع القوى. وهناك كذلك الإيطاليون أشد شعوب العالم الحالي عنفًا، وأكثرهم جمالاً. كما أنهم يتميزون بالصبر والجلد وكبرياء الأرستقرطية التي نجدها في أقل الطبقات الإيطالية[1].

أما أسوأ الشعوب، فهم الإنجليز، فقد أفسدوا العقل بأوهام الديموقراطية. كما أن النفعية الأوروبية هي آفة الثقافة في أوروبا. وهذه هي الهدية التي قدمتها إنجلترا للعالم. فهل هناك من يخلص أوروبا من إنجلترا ؟ وهل هناك من يخلص إنجلترا من الديموقراطية ؟

• ٨- الأرستقراطية:

ليس للديموقراطية معنى سوى الانطلاق، وأن يطلق الإنسان العنان لنفسه في المسرات والشهوات. إنها انحلال للتماسك وتتويج للفوضى والحرية المفرطة. إنها تعني تمجيد الطبقة الوسطى وكراهية النابغين والمتفوقين. وهي تعني استحالة وجود عظماء، فكيف يمكن لعظيم أن يقبل بما في الانتخابات من غش وكذب.

فأي فرصة تلك التي يمكن أن تقدمها الانتخابات للرجال العظام؟ فالشعب يكره الانتماء إلى الأحزاب كراهية الذئاب للكلاب. وكيف يمكن لهذه البيئة أن تنتج إنسانًا أعلى (سوبرمان)؟ وكيف تتمكن الأمة من أن تصبح عظيمة إن لم تستفيد من أعظم رجالها؟

ومساواة الرجل والمرأة في الحقوق نتيجة طبيعية لمبادئ الديموقراطية والديانة

(١) - هكذا صنف نيتشه الشعوب الأوروبية، وحدد وظيفة وأهمية كل شعب منها. (المترجم)

المسيحية. لقد استخفت النساء في هذا المجتمع بالرجال الضعاف فطالبن بالمساواة وتشبهن بالرجال.

ومن أسباب شقاء الأزواج السعي الدائم لتحقيق رغبات المرأة أولاً بأول. وهي تسعى إلى تضييق الخناق على الرجل وإفراغ حياته. فعندما يتقدم الرجل لخطبة امرأة، يقول لها إنه سيجلب لها العالم بأسره، وعندما تتزوجه، يفعل كل ما في وسعه لإسعادها. وعندما يرزق بطفل يتحول الحب إلى محبة عائلية.

ثم تحدث نيتشه بعد ذلك عن الاشتراكية والطبقة البرجوازية وعن طبقة الجنود والطبقة الأرستقراطية باستفاضة وقال رأيه في كل منهم. وخلص في النهاية إلى أن المجتمع المثالي ينقسم إلى ثلاث طبقات، وهي:

١- طبقة المنتجين: وتشمل المزارعين والعمال ورجال الأعمال.

٢- طبقة الموظفين: وتشمل أيضًا الجنود.

٣- طبقة الحكام: وهم من الساسة والفلاسفة وليسوا موظفين.

وقد اشترط نيتشة ذلك الشرط لأن الوظيفة عمل حقير لا يتناسب مع الحاكم. فالحاكم يسيطر على المال والجيش ويحيا حياة الجندية وليس حياة الرجال العاديين. وهو يرى أن أفلاطون أصاب عندما قال إن الفلاسفة هم أعظم الرجال وأعلاهم شأنًا. وأن عليهم أن يمزجوا بين العلم والقيادة. وأن تربطهم الأخلاق الفاضلة والصداقة القوية.

لكن، هل يجب أن تكون الطبقة الحاكمة وراثية وطائفية؟ إجابة نيتشه على ذلك هي: نعم. وعلى الطبقة الحاكمة أن تحرص على عدم امتزاج دمائها بدماء أخرى[١]، فأسوأ ما يضعف الأرستقراطية ويفسدها ويلوث دمها هو زواج الأسر الحاكمة من

(١) - فكرة نقاء الدماء هذه راودت الكثير من الناس، فقد رأى اليهود أنهم أعلى من أي طائفة أخرى وأنهم أرقى من الجميع، لذلك أطلقوا اسم «الأمميين» على كل من هم من غير اليهود. واليهود الصهاينة يبيحون الزنا للرجال طالما أنه مع غير اليهوديات، ولا يرحبون بالزواج منهن. كما استخدم هتلر نفس الفكرة أيضًا حين قال في كتابه «كفاحي» إن الجنس الآري أرقى الأجناس ولا يجب أن تتلوث دماؤه بمن هم أقل منه وخاصة اليهود. كما قال في نفس الكتاب في معرض حديثه عن نفسه كجندي في الحرب العالمية الأولى أنه كان لا يخشى أن يموت بقذيفة أو رصاصة في الحرب، لكنه كان يستنكر كيف يمكن أن يكون مطلق هذه القذيفة أفريقي أسود (زنجي) مستأجر في الحرب !! (المترجم)

الأغنياء من عامة الشعب والسوقة. وهذا متبع في الأرستقراطية الإنجليزية. وقد دمر هذا التصاهر أعظم هيئة حاكمة في التاريخ وهي مجلس الشيوخ الروماني. والإنسان الكامل[1] ثمرة أجيال من الإعداد وحُسن الانتخاب. وقد دفع آباء وأجداد الإنسان الكامل ثمن كماله.

هذه الفلسفة قد تـؤذي تلك الآذان التي طالما استمعت وآمنت بمبادئ الديموقراطية. لكن الشعوب التي لن تستمع إلى هذه الفلسفة وتتبعها مصيرها الفناء. والشعوب التي ترى في هذه الفلسفة نعمة كبرى وتحاول تطبيقها تكون سيدة للعالم أجمع. ولكننا لن نجد الشجاعة والبصيرة إلا في تلك الطبقة الأرستقراطية التي ستوحد أوروبا وتقضي على النزعات القومية السائدة.

علينا أن نكون أوروبيين صالحين مثل نابليون وجوته وبيتهوفن وشوبنهور وغيرهم. فقد طال انقسامنا وتشتتنا في أجزاء يمكن توحيدها في كُل واحد لا يتجزأ[2]. فكيف يمكن لثقافة عظيمة أن تنمو وتزدهر في بيئة إقليمية وقومية ضيقة. لقد ولى زمن السياسة الإقليمية الضيقة وحان عصر السياسة العظيمة. لكن: متى سيظهر ذلك الجنس الجديد؟ متى يقودنا الزعماء الجدد؟ ومتى تولد أوروبا من جديد؟

• ٩- نقـــــد:

فلسفة نيتشه تشبه قصيدة شعر أكثر منها فلسفة. وفلسفته تحتوي على أمور لا يمكن تحقيقها على الإطلاق. وقد تمادى في محاولات تقويم ذاته. إلا أننا نلاحظ مقدار العناء الذي مر به حتى يكتب كل سطر في فلسفته. كما لا يسعنا إلا أن نحبه بالرغم من انتقادنا له. إنه مجرد هواء طلق وريح منعشة بعد صلاة امتدت لفترة طويلة داخل كنيسة مزدحمة. ونحن إن أعدنا قراءة كتب نيتشه نجد أن جاذبية أسلوبه

---

(١) - يسعى الإنسان دائمًا إلى الشعور بالقوة، وهذا ما ركز عليه نيتشه في رغبته الملحة في وجود الإنسان الأقوى (السوبرمان)، إلا أن هذه الفكرة كانت محور مغامرات الخيال في مجلات الأطفال في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. وقد أفرطت تلك المجلات في قدرات ذلك الإنسان، فجعلته قويًا جدًا يمكنه أن يواجه الأشرار في كل مكان، كما أنه يستطيع الطيران أيضًا. (المترجم)

(٢) - تحققت رؤية نيتشه في ذلك، فقد تمكنت أوروبا من قيام الاتحاد الأوروبي ووضع قواعد وقوانين وعملة موحدة لكل دول الاتحاد، وذلك على الرغم من أن دول أوروبا بها شعوب تتحدث أكثر من ١٥٠ لغة مختلفة وشعوبها تعتنق العديد من الديانات. (المترجم)

تكمن في المبالغة. وسنلاحظ أنه قادر على قلب كل قيمة مقبولة وكل فكرة عادية، ليجعل منها أمرًا هامًا. كما أنه يسخر من الفضائل ويمدح كل الرذائل.

كما أن نيتشه لا يحاول إيجاد دليل على ما يقول، إنه يعلن أفكاره فقط ويقدم لنا خيالاً كما يتصوره هو رغم خلوه من المنطق. وهو لا يقدم فلسفة وشعرًا فقط، بل يقدم إيمانًا جديدًا وأملاً جديدًا ودينًا جديدًا !!

كما يؤخذ على نيتشه أيضًا أنه اعتاد مهاجمة من يدين لهم بفلسفته. فقد هاجم أفلاطون الذي استوحى منه كثيرًا من أفكاره. وذلك رغم فشله الواضح في التغلغل داخل الروح اليونانية القديمة.

ولقد بالغ نيتشه كثيرًا في نظام الأخلاق الذي وضعه، فلا شيء هناك في أن نطلب من الرجال أن يكونوا شجعانًا وأقوياء. فكل الفلسفات طالبت بذلك. لكن ما الداعي لأن نطلب من الناس أن يكونوا أشد قسوة وأكثر شرًا. كما أنه ليس من العدل أن نقول إن الضعيف يستفيد من الأخلاق ليحد من قوة القوي.

وقد يكون ذا بصيرة سياسية ثاقبة وصادقة عما هو حاله مع الأخلاق. فقد قال إن الأرستقراطية هي الطريقة المثلى في الحكم، وليس هناك من ينكر ذلك. لكن الأوروبيين جربوا ذلك النوع من الحكم ووجدوا أن الأرستقراطية الوراثية تعمل على مصلحة أفراد طبقتها فقط. كما أن تصاهر تلك الطبقة مع الطبقة المتوسطة أدى في بعض الأحيان إلى رفعتها وإنقاذها وفي بعض الأحيان الأخرى إلى سقوطها وانهيارها، أي أن ذلك لم يسبب الفشل فقط كما يفترض نيتشه. وقد تمكنت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة الإنجليزية من الحفاظ على مركزها بمصاهرة أبناء الطبقة المتوسطة. ومن جهة أخرى نجد أن الديموقراطية لا تريد توحيد العالم كما يقول نيتشه، لكنها سياسة قومية محدودة.

ومن السخف أيضًا أن نقطع بالقول بأن العباقرة يخرجون من الطبقة الأرستقراطية فقط. فمن الأفضل أن يكون المجال مفتوحًا أمام العباقرة من أي طبقة اجتماعية. وقد اعتدنا أن يخرج العباقرة من الأماكن الغريبة جدًا التي لا نتوقع خروجهم منها.

وعلى الرغم من النقد الذي نوجهه إلى نيتشه واستنكارنا لبعض ما قاله، إلا أننا لا يسعنا سوى أن نقول إنه أحد أركان الفكر الحديث. فعلى الرغم من مغالاته في مدح

نفسه حينما قال إن المستقبل سيقسم التاريخ إلى جزأين وهما ما قبل نيتشه وما بعد نيتشه، إلا أنه نجح في تقديم قيمة لم تكن معروفة من قبل في الأخلاق، وهي الأرستقراطية.

• ١٠- خاتمة:

لا شك أن تفكير نيتشه الكثير قد استهلك حياته. كما أدت المعركة التي خاضها ضد العصر الذي عاش فيه إلى اختلال التوازن العقلي عنده. فقد هاجم في أواخر أيامه كل من احتك بهم من فاجنر إلى المسيح. وبعد انهيار عقله، بدت العصبية واضحة حتى في ضحكه، يقول: "ربما أكون على علم أكثر من غيري في أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك، وذلك لأنه وحده الذي يتألم أشد الألم، وهذا أجبره على اختراع الضحك."

وقد قدره الناس حق قدره، لكن تقديرهم له جاء متأخرًا. وقد تنبه إليه البعض في الوقت الذي تجاهله فيه الجميع. ثم طُلب منه إلقاء محاضرات في جامعة كوبنهاجن عن "أرستقراطية نيتشه". وقد أرسل له أحد معجبيه مبلغ ٤٠٠ جنيه، لكن هذا التقدير وصله عندما كان يعاني من ظلام العمى وذهاب العقل وفقدان الأمل.

كان نيتشه في "تورين" في شهر يناير من عام ١٨٨٩م وقد تعثر بسبب عماه في غرفته وبدأ يملي ما يوحي بالجنون، فأرسلوه إلى مستشفى للمختلين عقليًا. إلا أن أمه العجوز جاءت وأخذته ليعيش تحت رعايتها. فظل نيتشه في رعاية أمه إلى أن ماتت، ثم انتقل لترعاه أخته التي عاش معها في "فيمار". وفي عام ١٩٠٠م توفى نيتشه، فلم نجد عبقريًا عانى من عبقريته مثلما حدث مع نيتشه، فقد دفع ثمنًا غاليًا لعبقريته.